

٣

سلسلة شاعر و مختارات

محمد الفيتوري



دكتور حامد طاهر
عميد كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

شاعرية المفيتوري

الشاعرية تعتمد على ثلاثة ركائز رئيسية هي : موهبة الشاعر ، وتقنياته الفنية ، ثم المرسالـةـ الشـعـرـيـةـ الـتـيـ يـرـيدـ تـوـصـيـلـهـ لـلـنـاسـ .

ولما كانت الموهبة نعمة إلهية ، يختص بها بعض الشعراء دون البعض ، فإن من أولى خصائصها عدم ارتباطها بعمر معين ، أو حتى بتعليم وتدريب . والملحوظ أنها قد ظهرت لدى المفيتوري في سن مبكرة جدا ، وعلامة ذلك أنه استطاع - وهو ما يزال في العشرينات - أن يصدر ديوانه الأول "أغانى أفريقية" ، الذى جاء على نحو واضح تماما ، واستطاع أن يثبت مكانة الشاعر في الأوساط الأدبية بمصر ، والعالم العربي .

ومن خصائص الموهبة الشعرية أنها تختصر على صاحبها الكثير من الجهد التعليمي والتدريبي وتقتصر به مباشرة بين صنوف كتاب الشعراء . فنجد أنه مثلاً يتقن موسيقى الشعر دون أن يكون قد تعلم أصولها ، ويقيمه بناء الجملة الشعرية الصحيحة دون أن يكون قد درس علمي النحو والمصرف ، كما نجد أنه قادر على تكوين صور شعرية ذات مستوى بلاغي رفيع ، دون أن يكون قد اطلع على مذاهب المبالغة وتفرعياتها . وما أجمل المثل المصري الذي يعد أصدق تعبير عن هذه الحالة ، فيقول "المكتوب المفصح . في البيضة يصبح ".

وهيـنـاـ يـبـرـزـ سـؤـالـ :ـ هـلـ الـمـواـهـبـ الـشـعـرـيـةـ مـتـسـاوـيـةـ ؟ـ وـالـإـجـابـةـ أـنـهـ مـتـفـاـوـتـةـ فـىـ الـحـجـمـ وـالـعـقـمـ وـالـاسـتـمـرارـ .

والدليل على ذلك أننا لو قمنا باستعراض إنتاج شاعرين ، أو مجموعة من الشعراء ينتمون إلى عصر واحد ، أو جيل واحد ، أو حتى تكوين ثقافى واحد ، فسوف ندرك على الفور مدى تفاوت مواهبيهم ، واختلاف القدرة لدى كل منهم على التحليق في آفاق أوسع ، أو

المتقاطع موضوعات أكثر، أو العثور على اكتشافات شعرية أروع من زميله أو زملائه. ولتأخذ مثلاً على ذلك كلًا من شوقي وحافظ (الذين اشتباك اسماءهما على نحو قدرى عجيب). فحافظ ابراهيم يكتب قصيده "العمريه"، يسرد فيها مجموعة من مواقف الخليفة العادل عمر بن الخطاب. وهي قصيدة طويلة، وجيدة. لكنها لا تصل - بحال من الأحوال - إلى بعض قصائد شوقي كالهمزية النبوية، أو المازهر، أو النيل، التي تحتوى كل منها على مجموعة من المآثر الشعرية، التي يتذر أن يقع عليها شاعر آخر، بما فيهم حافظ نفسه.

كذلك فإن الموهبة الشعرية القوية قد يعتريها الضعف، بل إنها قد تموت والشاعر ما زال حيا. وهناك أمثلة عديدة على ذلك لشعراء توقفوا عن كتابة الشعر، وانصرفوا إلى أنشطة أدبية أو ثقافية أخرى. وهنا لا بد من التفرقة بين الشعر الحقيقى والنظم. فالنظم هو مجرد قردة آلية على كتابة شعر موزون بقافية، ولكنه خال من روح الشعر. وهذا النظم يستطيع أصحابه أن يظلوه يكتبونه حتى وهم على فراش الموت! أما الموهبة الشعرية القوية فإنها تستمر بنفس حيويتها بل إنها تزداد مع مرور الأيام والتجارب صفاء وتركيزًا.

ونحن إذا تأملنا موهبة المفيتوري، وجدناها من تلك المواهب التي لم تضعف قوتها على الرغم من مرور الزمن، بل إنها ظلت متوجهة ومتّيزة بنفس حدتها الأولى، بل إنها زادت من كثرة التجارب، والتقلب في عواصم عربية ودول أوروبية مختلفة، ومحاولاته المستمرة تجربة أشكال متنوعة من القصائد، تبعاً لمذاهب أدبية عالمية (السريالية وغيرها).

لقد سبق لي أن أشرت في كتابي عن هاشم الرفاعي، وصالح المشرنوبى أن بشائر الموهبة الشعرية تظهر منذ عمر مبكر. وموهبة المفيتوري لا تختلف عن ذلك. فنحن نجد في ديوانه الأول - الذي أصدره سنة 1955، وهو ما يزال طالباً في الجامعة - قصائد كتبت في عمر مبكر جداً، وهي في نفس الوقت على مستوى عالٍ من النضج الفني، بل إن بعضها يصل بالفعل إلى مستوى الشعر العالمي.

ويمكن التوقف طويلاً أمام قصيدة المفيتوري بعنوان "تحت الأمطار" التي تعد نموذجاً لذلك. فهي قصيدة قصيرة، لكنها شديدة التركيز. وهي تصور مشهدًا مألوفاً، لكنه بالغ التميز، وتتعدد فيها الأصوات: صوت الشاعر، صوت سياط سائق العربة، صوت الموت.. تحت إيقاع صوت المطر المهاطل في الليل، وكل ذلك في مقابل صمت الخيول المتعبة الدامية المرقبة من أثر حديد السرج!

إن القصيدة في مجملها رمزية: سائق عجوز أنهك خيول عربته دون مبالاة بآلامها (كذلك كل سلطان غاشم ينهك شعبه دون أن يستمع إلى شكواه). القصيدة ببناء درامي محكم، يتميز أول ما يتميز بانعدام المزواب (أي كلمات الحشو التي يلجم إليها الكثير من الشعراء) واتقان اختيار المقافية الموضوعة في مكانها تماماً (دون الوقوع في هاوية القوافي الماضطرارية) وإلى جانب هذا وذلك المبالغة التي تمزج بين الحقيقي والمجازي، وبين الواقع البسيط والاستعاري.

إنها أقرب ما تكون إلى لغة السينما الحديثة، التي تنتقى المشاهد ذات الدلالة العميقة، لتخترص بها - وفيها - الأزمنة، والمسافات، وتبعد في لوحات متتالية عن المواقف، حتى تصل إلى التأثير المطلوب في أعماق المتلقى.

ولنقرأ معاً القصيدة (مستأذناً الشاعر في كتابتها على نسق الشعر التقليدي) :

أيها المسائق .. رفقاً بالخيول المتعبة

قف .. فقد أدمى حديد المسرج لحم المرقبه

قف .. فإن المدرب في ذاكرة الخيل اشتبه

هكذا كان يغنى الموت حول العرب

وهي تهوى تحت أمطار الدجى مضطربه

**

غير أن المسائق الأسود ، ذا الموجه المنحيل

جذب المعطف في يأس على الموجه العليل

ورمى المدرب بما يشبه أنـ وـارـ الأـفـ وـلـ

ثم غنى سوطه الباكى على ظهر المخيول..

فتلوـتـ ، وـتـهـاـوتـ ، ثـمـ سـارـتـ فـىـ ذـهـ وـلـ !!

المـكـنـيـكـ المـفـنـىـ :ـ الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ كـنـزـ لـاـ يـعـرـفـ قـدـرـهـ إـلـاـ الـعـارـفـونـ بـقـيـمـةـ مـاـ يـحـتـويـهـ مـنـ مـاسـاتـ وـجـواـهـرـ .ـ وـلـاـ شـكـ أـنـ الـمـفـيـتـورـىـ قـدـ دـرـسـ عـلـمـ الـبـلـاغـةـ فـىـ مـرـحـلـةـ الـدـرـاسـةـ الـثـانـيـةـ ،ـ ثـمـ فـىـ دـارـ الـعـلـومـ ..ـ وـهـوـ كـشاـهـرـ ،ـ وـأـجـمـلـهـ عـلـىـ الإـطـلـاقـ مـاـ يـحـتـويـهـ بـابـ الـمـجـازـ وـبـابـ الـاستـعـارـةـ ،ـ الـلـذـيـنـ أـبـدـعـ الـشـعـرـاءـ الـعـرـبـ الـمـقـادـمـىـ عـلـىـ مـنـوـالـهـمـاـ أـرـوـعـ الـمـتـراـكـيـبـ .ـ

لـكـ الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ لـاـ تـضـعـ فـىـ فـمـ الـشـاعـرـ مـلـعـقـةـ مـنـ ذـهـبـ ،ـ وـإـنـمـاـ تـعـطـيـهـ الـمـفـتـاحـ الـمـسـحـرـىـ الـذـىـ يـمـكـنـهـ مـنـ فـتـحـ بـوـابـاتـ جـديـدـةـ فـىـ آـفـاقـ الـشـعـرـ الـعـرـبـيـ .ـ وـقـدـ ظـلـ بـعـضـ الـشـعـرـاءـ الـمـحـدـثـيـنـ -ـ خـطاـ .ـ أـنـ الـشـعـرـ الـعـرـبـيـ الـمـقـدـيمـ قـدـ اـسـتـنـفـدـ كـلـ وـسـائـلـهـ ،ـ وـأـنـهـ بـلـغـ حـدـاـ اـكـتـمـلـ فـيـهـ حـتـىـ أـغـلـقـ ،ـ وـنـضـجـ حـتـىـ اـحـتـرـقـ ..ـ لـكـنـهـ لـمـ يـنـتـبـهـ وـاـلـىـ سـرـ الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ الـذـىـ يـتـمـثـلـ فـىـ كـوـنـهـاـ مـنـهـجـاـ لـاـ مـوـضـوـعـاـ ،ـ وـأـسـلـوبـ صـيـاغـةـ لـاـ مـادـةـ صـيـاغـةـ .ـ

وـهـذـاـ هـوـ الـسـرـ الـذـىـ أـدـرـكـهـ الـمـفـيـتـورـىـ ،ـ وـاحـفـظـ بـهـ لـنـفـسـهـ ثـمـ اـسـتـخـدـمـهـ فـىـ لـغـةـ الـشـعـرـ ،ـ لـكـنـهـ أـضـافـ إـلـيـهـ عـنـصـرـيـنـ جـعلاـهـ أـكـثـرـ حـيـوـيـةـ وـأـشـدـ تـأـثـيرـاـ :ـ الـعـنـصـرـ الـمـأـولـ هـوـ اـسـتـمـدـاـهـ الـمـتـشـبـيـهـاـتـ وـالـاـسـتـعـارـاتـ مـنـ وـاقـعـ الـحـيـاةـ الـمـثـقـافـيـةـ الـحـيـةـ ،ـ وـالـمـاثـنـىـ مـاـ اـقـتـبـسـهـ أـوـ تـأـثـرـ بـهـ مـنـ الـشـقـافـةـ الـأـجـنـبـيـةـ وـنـمـاذـجـ الـأـدـبـ الـعـالـمـىـ ..ـ فـمـثـلاـ اـسـتـطـاعـ الـمـفـيـتـورـىـ أـنـ يـمـزـجـ فـيـ بـعـضـ قـصـائـدـهـ بـيـنـ الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ وـالـمـسـرـيـالـيـةـ ،ـ دـوـنـ أـنـ يـقـعـ فـيـ فـخـ الـغـمـوـضـ وـالـلـامـعـنـىـ ..ـ وـهـنـاـ زـاـبـدـ مـنـ الإـشـارـةـ إـلـىـ خـاصـيـةـ يـتـمـيـزـ بـهـ الـمـفـيـتـورـىـ وـهـىـ حـرـصـهـ عـلـىـ تـحـدـيدـ مـلـامـحـ صـورـهـ الـشـعـرـيـةـ تـحـدـيـداـ دـقـيـقاـ حـتـىـ تـبـدوـ بـوـضـوـعـ كـامـلـ لـلـقـارـئـ ،ـ وـهـوـ هـنـاـ أـشـبـهـ بـالـرـسـامـ الـعـالـمـىـ بـيـكـاسـوـ فـيـ أـلـوـانـهـ الـحـادـةـ وـالـمـزـاعـقـةـ ،ـ وـكـذـلـكـ فـيـ خـطـوـطـهـ الـسـمـيـكـةـ وـالـمـقـاطـعـةـ ..ـ

فـإـذـاـ بـحـثـنـاـ عـنـ مـادـةـ الـصـورـ الـشـعـرـيـةـ الـتـىـ يـسـتمـدـ مـنـهـاـ الـمـفـيـتـورـىـ وـجـدـنـاـهـاـ تـمـتـلـ فـيـمـاـ يـلـىـ :

أولاً : في الحياة الإفريقية وحيواناتها وطيورها وأساطيرها ودقائق طبولها .. الخ

ثانياً : في تجربة الإنسان العربي مع انكسارات الأمة العربية ، ومحاولاته الميائسة تلمس أى نجم يلمع في سمائها ..

ثالثاً : في التجربة الشعرية ذاتها ، التي ينصلح فيها الشاعر ويتألم ويصرخ .. ولكنـهـ فيـمـاـ يـبـدوـ مـسـتعـذـبـ عـذـابـهـ ، بلـ إـنـهـ مـنـتـشـ منـ اـفـتـارـاسـهـ لـهـ

رابعاً : في المفردات الكونية التي تتجاوز حوائط المدن وأسقف العمارات الأسمانية لتفترض مباشرةً من البحر والجبل والقمر والسماء والنجوم والمكهوف والمفصول الأربعـةـ والرياح والبرق والرعد والمشواطـيـ والمـرمـالـ والمـحـصـىـ .. الخ

وأخيراً : في عالم التصويف ، الذي كان والده أحد شيوخه وهو نفسه أحد مریديه ، بموجيده وأحواله ولوامعه وانقباضه وبسطه وطقوسه ودراويسه .. الخ

كيف يصوغ المفيتوري صوره الشعرية ؟

مثل صانع الممنمنات في خان الخليلى بالقاهرة ، يعکف المفيتوري على صياغة مفردات صوره الشعرية بدءاً من تكوين "أوصاف" تخلع على الجمامـادـ طـابـعـ الـحـيـاةـ ، أو تضـفـ علىـ الـأـحـيـاءـ خـصـائـصـ الـمـوـتـ أوـ يـعـطـيـهاـ لـوـنـاـ حـيـثـ لـاـ مـكـانـ فـيـ الـعـادـةـ لـقـبـولـ الـلـوـنـ . ومن ذلك :

(القمر المميت - الموتى المخجول - المنحلة الذهبية - المياقوتة المميّة - الدجى الأنبوسى - المشتا الرمادي - المافق المأرجوانى - المسكون المجليل - البرق الملثم . . .)

وما أكثر ما يستخدم المفيتوري المضاد والمضاد إليه على هذا المنوال ، محاولاً دائمًا أن يفاجأ القارئ الذي يتنتظر أن يأتي المضاد

إليه مناسبًا للمضاف، ولكنه يقصد بشئ مختلف تماماً. ومن ذلك : (كتب المرمل - كتب الغيم - وجوهه المدخان - طاحونة المريخ - قارعة الموقت - أشجار السماوات - أمواج منتصف الليل - فم النار - خزف الكلمات - حزن البحر - حزن المضواه - غناء الجمامجم - بلاط السكوت - ذافية البحر - سنبلة النار - شجر الدمع ..)

وإذا كان ما سبق نماذج لصور مفردة ، فإن نماذج المصور المركبة لدى المفيتوري لا تقل جمالاً وروعه . وهي بتكميلها ، أى ببدايتها ونهايتها (وأنا هنا ألفت المأذنقار إلى الشعراء الذين يعجزون عن رسم صور شعرية متكاملة ، وبعضهم يبدأ ببداية جديدة ثم لا يلبث أن يفقد خيوط الصورة فتغlim تحت قلمه وتضيع) وهذه أمثلة من صور المفيتوري المركبة :

سياط المخيانة تجلد أرواحهم.

رؤوس المدن المقطوعة الخرساء.

كان كذب المجبال وحيداً.

عينان شمسان رغبتان مثبتتان على لوجة الغيب .

كانت أدوف البنادق تبصر أحشاءها فيه.

ويرحل في سحب النار عنقود من السنوات.

أشباح موتي من الجوع تخضر سيقانهم في المرمال وتبس ثم تقيع.

رؤوس ملوك مرصعة بالأساطير.

لا تسكب دماعك في المحروق سدى كما يتضع الموتى من الشعراء.

ويذه المقدرة الفائقة على تكوين صور مبتكرة ، وأكاد أقول لا يمكن توقيعها إلها باسمه ، يصبح المفيتوري قادرا على رسم لوحة متكاملة في مقطع واحد مستخدما مجموعة من الصور المتباورة والمتتالية ، التي يكون مجموعها ما يرمي إليه . ويمكن الإشارة هنا إلى مقطع من قصidته عن المكافح الأفريقي الكبير نيلسون مانديلا الذي يخاطبه قائلا :

يا أبناؤس الخريف الجنوبي

تطلع حقل نجوم على حائط الموت

تصبح أوسمة من بروق

وعاصفة من غذاء

وخيابا عظيمًا من المرقص

أيها البطل الشيخ

مختسلا بمياه الثمانين

مختبئا في تجليك

متكتئا فوق مجد الثمانين

ولما يكاد الفيتوري يترك صورة من صوره الشعرية تمر على نحو مألوف للقارئ لما ويطعمها بعنصر من المفاجأة غير المتوقعة .
يقول في قصيده عصفور من الدم :

وهدى هو الدم العربي

المذى يتدفق عطشان

من فجوات الجراح

إلى فجوات المشوارع

فمن الطبيعي أن يتذوق الدم من جراح المضحى المتأثرين إلى فجوات الشوارع .. ولكنه يصف الدم بالعطش ، وهو وصف سريالي ، فالدم يروي أرض الوطن ولما بعده ..

ويناك إلى جانب ذلك ما تتميز به الصورة الشعرية لدى المفيتوري من وحشية وغرابة يندر أن نلتقي بمثلها لدى أحد من الشعراء العرب المقدامي والمحديثين . ومن أمثلة ذلك تلک الصور المثاث المتباورة في مقطع واحد بنفس المقصدية :

كان ثمة كف رمادية

تدلى من السقف

حاملة قمرا ميتا

وطيور من النار تنقر لؤلؤة الليل

كان قلبي آجرة من دم ،

ثقبوها فسالت نجوما مطرحة

عبر أقنية الليل

من يمكنه أن يتصور - فضلا عن أن يرسم - كف رمادية تتدلى من السقف ، وهي تحمل قمرا ميتا ؟ أو طيورا من النار تنقر لؤلؤة الليل ؟ وأى أمر موحش تحدثه الصورة في نفس المتلقى الذي يهيئه المفيتوري لكي يقترب من حالة قلبه ، الذي تحول هو الآخر إلى

"آجرة من دم ثقبوها .. فسالت نجوما مضرجة عبر أقنيه الليل" !! إن المشهد بأكمله أقرب ما يكون إلى مشهد فيلم رعب من أفلام الخيال العلمي ، ولكنها مرسوم بدقة ، ومكتوب بكل عناء .

والنقطة المهمة التي أود أن المفت لها المانتباه عن المفيتوري أن التكينيك المفنى تديه لا يهدف إلى تقديم هيكل خالية من المروج ، وإنما يتميز بأنه موظف لنقل شحنة شعورية جارفة ، تستمد ينابيعها من روح المشاهر التي هي - في نفس الوقت - روح الجماهير .. لذلك فإن المقدمة المفيتورية قد تصدم ، وقد تفاجئ ، ولكنها لا تثبت أن تصبح مألوفة لدى المتلقى ، بل أشيرة تديه ..

وقد يبدو أن المفيتوري ، صاحب تلك المقدمة الشعرية العنيفة ، لا يستطيع إلا أن يكون مفاجئا وحادا على الدوام ، ولكننا نجده في بعض الأحيان يعذب ويرق وتسري صوره مثل النسيم . يقول في قصيده "ليس في المياسمينة غير البكاء : "

نَهَرْ ذاغْتَسْل

يا أيها المغتسل

آلية العاشق المفرد أن يمثل

ولقد يصل الماء ، أو لا يصل

والحمدى نجمة فى المدى ترتحل

فاسقهم منك فى روحهم تشتعل

وامش تحت حواتطهم .. تكتمل

وإذا كان المشاعر العربي القديم قد استطاع أن يركز بعض تجاربه في أبيات مفردة من المشعر ، وهو ما تميز به مثلا في العصر المجهلي طرفة بن العبد ، والمنتسب في العصر العباسي ، وشوقي في العصر الحديث .. فإن المفيتوري قد فعل نفس الشيء ، لكنه لم يرض أن يسير على خطى الم السابقين ، فركز التجربة في مقطع شعرى . نقرأ له في قصيدة "ملك أو كتابة":

سألوني

وها أناأشهد

أن الزمان عجيب

وأعجبه أن هذى المجموع

تغنى وترقص فى قفص من حديد

وفى قصيدة "حريق فى رداء الأميرة" يقول:

الأرض تعرف أبناءها

كلما ارتجمفوا راجعين

ولقد يستطيل عليهـا الغـزـةـ

ولكنـهاـ تـتـقـيـؤـهـمـ .. بـعـدـ حـينـ !

وفـيـ قـصـيـدـةـ "ـمـنـ أـحـرـقـ قـلـبـ الـفـسـتـقـةـ يـقـوـلـ :

أـعـرـفـ يـاـ مـوـلـاـيـ أـنـ بـطـلـاـ مـنـتـصـراـ

مـثـلـكـ لـاـ يـسـمـعـ إـلـاـ صـوـتـ بـطـشـهـ

وـلـاـ يـبـصـرـ إـلـاـ وـجـهـ عـرـشـهـ

وـوـجـهـ نـعـشـهـ

ولما يعبد كائنا سواه

وفى قصيدة "بيروت": "

بيروت تشهق بالقذائف والقذابل

بيروت تحلم بالخرائب والازل

فهناك مجلود وجلاد

ومقتول وقاتل

وبنادق خانت

وآخرى عن مواقفها تقاتل!

وفى قصيدة "المقتول يدفع الثمن": "

حين يسود المرعب والوهن

ويبطئ المشهود والمقدمة والمزمن

ينفلت المقاتل ،

والمقتول يدفع الثمن

وفى قصيدة "ياقوت العرش":

دنيا لا يملكونها من يملكها

أغنى أهلها سادتها المفقراء

المخاسر من لم يأخذ منها

ما تعطيه على استحياء

والغافل من ظن الأشياء..

هيـ الأـشـيـاءـ!

تبقى مسألة أخيرة ، وهيـ المـتـىـ تـتـعـلـقـ بـمـقـدـرـةـ الـفـيـتـورـىـ عـلـىـ كـتـابـةـ الـقـصـيـدـةـ الـخـاصـةـ بـهـ فـىـ أـىـ مـنـ الـمـقـالـبـينـ :ـ الـعـمـودـىـ وـالـمـحرـ .ـ وـهـوـ عـنـدـمـاـ يـكـتـبـ الـقـصـيـدـةـ الـعـمـودـيـةـ يـبـدوـ مـتـمـكـنـاـ غـايـةـ الـمـتـمـكـنـ ،ـ وـمـسـيـطـراـ عـلـىـ أـدـوـاتـ هـذـاـ النـمـطـ الـمـصـعـبـ ،ـ وـالـذـىـ يـعـمـلـ هوـ نـفـسـهـ عـلـىـ أـنـ يـزـيدـهـ صـعـوبـةـ ،ـ مـنـ خـالـلـ اـخـتـيـارـهـ لـلـبـحـورـ الـصـعـبـةـ ،ـ وـالـمـقـواـفـىـ غـيرـ الـمـطـرـوـقـةـ ..ـ وـيـسـتـحـقـ الـفـيـتـورـىـ مـزـيـداـ مـنـ الـمـدـرـاسـاتـ حـولـ مـاـ أـحـدـهـ مـنـ تـطـوـيـرـ فـيـ الـقـصـيـدـةـ الـعـمـودـيـةـ ،ـ فـقـدـ جـعـلـهـاـ قـابـلـةـ لـحـمـلـ مـخـلـفـ الـمـضـامـمـينـ الـحـدـيـثـةـ دـوـنـ أـدـنـىـ نـشـازـ ..ـ كـمـاـ أـنـهـ خـرـجـ بـهـاـ فـىـ نـفـسـ الـمـوـقـتـ .ـ مـنـ الـرـتـابـةـ ،ـ الـجـمـودـ ،ـ وـالـفـرـاغـ الـفـكـرـىـ ،ـ وـالـخـوـاءـ الـشـعـورـىـ الـذـىـ أـسـقـطـهـاـ فـيـهـ شـعـراءـ الـيـوـمـ ،ـ الـذـينـ يـدـعـونـ -ـ زـيـفـاـ -ـ أـنـهـمـ حـمـةـ الـشـكـلـ الـعـمـودـىـ ،ـ عـلـىـ الـرـغـمـ مـنـ أـنـهـمـ أـكـبـرـ الـمـسـيـئـينـ إـلـيـهـ !ـ وـيـمـكـنـ لـلـقـارـئـ أـنـ يـتـأـمـلـ كـلـاـ مـنـ قـصـائـدـهـ :

"ـ الـمـتـنـبـىـ "ـ وـمـطـلـعـهـاـ :

يـمـرـ غـيرـكـ فـيـهـاـ وـهـوـ مـحـتـضـرـ

لـابـرـقـ يـخـطـفـ عـيـنـيـهـ وـلـاـ مـطـرـ

"ـ مـقـدـمـةـ الـزـيـارـةـ "ـ وـمـطـلـعـهـاـ :

وقفت والشمس ملقاء على كتفى

وبيريق الشعر فى عينى غير خفى

" لا ، ليس لبنان " ومطلعها :

لا ، لا تقل دخلوا فى الموت أو رحلوا

هذاك من أمر الأبطال فانتقلوا

ولعل هذا هو الدافع الذى جعلنى أعيد كتابة المصائد العمودية لدى المفيتوري فى النسق المعهود للقصيدة العربية التقليدية ، مخالفًا بذلك كتابة المفيتوري نفسه ، المتنى تضعها فى شكل الشعر الحر ، حتى يتبين أكثر أن المصيدة العمودية لديه - رغم تأصلها فى المشكـل التقليدى - تتميز بسمات بارزة من التطوير والتحديث . وهذا أمر يحتاج إلى دراسات واسعة .

أما الشعر الحر ، وهو - كما نعلم - منزلق خطير لمن يجيدون الوزن والمقافية ، فقد استخدمه المفيتوري بحذر شديد . وهناك قلة فقط من الشعراء هم الذين تنبهوا لذلك ، منهم بدون شك : أحمد عبد المعطى حجازى ، وأمل دنقل ، فى حين اندفعت الأغلبية فى ثرثرة بدون ضوابط ، ومن ثم غامت لديهم الصور ، وتسطحت التجارب ، وانعدم الفن الجميل ..

يقول المفيتوري في مطلع قصيده "ملك أو كتابة":

بيننا خائن يا رفيق

أنا أو أنت..

فلنقترب قبل بدء الطريق:

ملك أو كتابة؟

ويقول في قصيدة "ليس في الميسمينة غير البكاء":

مثل أرملة العرس ،

أسدلت المنحلة الذهبية أهدابها

وهوت مطراً زاعماً

في بكاء المغضون.

ليس في المياسمينة غير البكاء

في بهو سيدة القلب ذاتورة ،

ومغن حزين!

وفي قصيده " قمر للغناء " يقول:

مطر أخضر ،

وعيون مرصعة بالرؤى والأساطير

كانت تحاصرنى المذكريات ،

وباريس سابحة فى الفضاء السماؤى

باريس تبني كنائسها الذهبية ،

فوق جسوم محنطة فى التوابيت

باريس ليست مدينة.

أن الشعر الحر لدى المفيتوري ينبع تلقائياً من نموذج الشعر العمودي ، ويتطور المثير من أدوات هذا النموذج وألياته . كذلك فإنه يتميز بحرصه على موسيقى الوزن التي تستجيب لمضمون كل قصيدة على حدة . أما القوافي فإنها غير غاثبة تماماً ، وهي تظهر بين المفنية والمفنية لتحدث إيقاعاً متناقضاً ، يجعل من القصيدة قطعة موسيقية مميزة .

إننى لا أزعم دراسة شعر المفيتوري ، ولكننى فقط أنبه إلى ضرورة إجراء هذه الدراسة ، وعلى مستويات مختلفة ، حتى يتبين مدى ما حققه هذا الشاعر الكبير فى بناء القصيدة العربية .

رسالتـهـ الشـعـرـيـةـ

منذ ديوانه الأول "أغانى إفريقيـةـ" 1955 ، أدان المـفيـتـورـىـ بشـدـةـ استـعبـادـ (الأـبـيـضـ)ـ لـأخـيـهـ الإـنـسـانـ (الـأـسـوـدـ)ـ ،ـ وـالـمـوـاقـعـ أـنـ إـدانـةـ الـاستـعبـادـ فـىـ شـتـىـ صـورـهـ وـنـمـاذـجـهـ كـانـ وـسـوـفـ يـظـلـ مـنـ أـهـمـ الـمـبـادـئـ الـتـىـ كـرـسـ لـهـ الـمـفـيـتـورـىـ رسـالـتـهـ الشـعـرـيـةـ ،ـ فـلـاـ تـكـادـ تـخلـوـ قـصـيـدةـ لـدـيـهـ مـنـ مـتـصـرـيـحـ أوـ إـشـارـةـ أوـ تـضـمـنـىـ إـلـىـ بـوـاعـثـ الـاسـتـعبـادـ الـبـشـرـىـ ،ـ وـمـظـاهـرـهـ ،ـ وـسـوـءـاتـهـ عـلـىـ مـخـلـفـ الـمـسـتـوـيـاتـ :ـ اـسـتـعبـادـ الـفـرـدـ لـلـمـجـتمـعـ ،ـ وـاسـتـعبـادـ الـمـجـتمـعـ لـلـفـرـدـ ،ـ وـاسـتـعبـادـ الـمـجـتمـعـ لـلـمـجـتمـعـ .ـ

إنـ الإـنـسـانـ فـىـ جـوـهـرـهـ خـامـةـ نـقـيـةـ يـكـادـ يـلـمـسـ بـأـجـنـحةـ قـلـبـهـ قـبـةـ السـمـاءـ ،ـ وـيـقـرـبـ بـتـجـرـدـ وـصـدـقـ ذـواـيـاهـ مـنـ حـضـرـةـ الـأـلوـهـيـةـ ،ـ وـلـكـنـهـ حـيـنـ يـدـوـسـ بـطـمـعـهـ وـجـشـعـهـ وـجـبـرـوـتـهـ تـلـكـ الـمـاسـةـ الـمـتـأـلـقـةـ فـىـ أـعـمـاـقـهـ فـيـهـشـمـهـاـ ،ـ عـنـئـذـ يـتـحـولـ إـلـىـ وـحـشـ كـاـسـرـ يـمـزـقـ بـأـنـيـابـهـ وـأـظـافـرـهـ كـلـ مـنـ يـقـفـ فـىـ طـرـيقـهـ ،ـ وـلـاشـكـ أـنـ مـظـاهـرـ الـعـسـفـ وـالـاضـطـهـادـ وـالـاستـبدـادـ لـيـسـ سـوـىـ وـجـوهـ كـثـيـبةـ لـلـنـفـسـ الـبـشـرـيـةـ حـيـنـ تـنـفـلتـ ذـواـيـعـهـ ،ـ وـتـنـحـطـ مـقـاصـدـهـ .ـ لـقـدـ حـمـلـ الـمـفـيـتـورـىـ فـىـ شـعـرـهـ عـلـىـ الـمـطـغـاةـ وـالـمـسـتـبـدـيـنـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـحـكـامـ الـذـيـنـ كـبـلـوـاـ شـعـوبـهـ بـالـعـسـفـ ،ـ وـأـخـرـسـوـاـ أـصـواتـهـ بـالـمـخـوفـ ،ـ وـقـتـلـوـاـ فـيـهـاـ كـلـ تـطـلـعـ إـلـىـ الـحـرـرـيـةـ ،ـ كـمـاـ دـاـسـوـاـ عـلـىـ أـىـ اـتـجـاهـ نـحـوـ الـإـحـسـاسـ بـالـكـرـامـةـ الـإـنـسـانـيـةـ لـذـلـكـ ذـرـاهـ يـمـجـدـ بـطـوـلـةـ الـمـاثـلـيـنـ عـلـىـ هـذـاـ الـظـلـامـ الـغـاشـمـ ،ـ وـيـشـيدـ بـمـبـادـرـاتـ الـأـحـرـارـ الـذـيـنـ يـرـفـضـونـ الـمـانـصـيـاعـ دـاـخـلـ أـسـوـارـ ذـلـكـ السـجـنـ الـكـبـيرـ .ـ

فـىـ رـسـالـتـهـ الـمـفـيـتـورـىـ الشـعـرـيـةـ ،ـ لـاـ يـتـوقـفـ الـمـقـارـئـ عـنـ الـإـحـسـاسـ الـمـجـارـفـ بـحـقـ الـإـنـسـانـ -ـ أـيـاـ كـانـ جـنـسـهـ أـوـ لـوـنـهـ أـوـ مـسـتـوـاهـ الـاجـتمـاعـيـ -ـ فـىـ الـحـرـرـيـةـ وـالـكـرـامـةـ ،ـ وـالـمـساـواـةـ ،ـ لـذـلـكـ فـيـنـهـ يـدـيـنـ -ـ وـبـصـوـتـ عـالـ -ـ كـلـ مـظـاهـرـ الـكـبـتـ ،ـ وـالـإـذـالـالـ ،ـ وـالـمـتـفـرـقـةـ الـعـنـصـرـيـةـ ،ـ وـلـأـنـ هـذـهـ الـظـواـهـرـ الـمـؤـسـفـةـ تـبـدوـ بـحـدـةـ فـىـ الـدـاشـرـةـ الـإـفـرـيقـيـةـ ،ـ ثـمـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ فـقـدـ رـكـزـ عـلـىـ هـاتـيـنـ الـدـاـثـرـتـيـنـ ،ـ وـإـنـ كـانـ أـحـيـانـاـ قدـ سـجـلـ بـعـضـ مـظـاهـرـهـاـ الـمـحـادـةـ فـىـ الـمـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ ،ـ الـتـىـ وـجـدـهـاـ تـعـيـشـ تـنـاقـضـاـ غـرـيبـاـ ،ـ حـيـثـ تـعـجـبـ بـالـمـعـنـىـ الـزـنـجـيـ (ـبـولـ روـبـسـونـ)ـ (ـوـتـطـرـبـ عـلـىـ اـيـقـاعـاتـ الـأـحـانـهـ ،ـ وـلـكـنـهاـ فـىـ الـأـعـمـاـقـ وـبـعـنـصـرـيـةـ مـتـأـصـلـةـ كـارـهـةـ لـزـنـجـيـتـهـ ،ـ رـافـضـةـ لـوـجـوـدـهـ فـيـهـاـ

!!

يـقـولـ الـمـفـيـتـورـىـ :

جبهة العبد، و فعل السيد

وأنين المؤسود المضطهد

تلك مأساة قرون غبرت

لم أعد أقبلها .. لم أعد

**

كيف يستعبد أرضي أبيض

كيف يستعبد أمس وغدو

أنا انسان ولی حریتي

وهي أخـلـى ثـرـوةـ منـ ولـدـي

ويـسـتمـرـ الفـيـتـورـىـ فـىـ رـفـضـهـ لـكـلـ الـأـلـوـانـ اـسـتـعـبـادـ الـأـبـيـضـ لـأـهـلـ إـفـرـيـقـيـاـ السـوـدـ ،ـ وـتـتـمـثـلـ روـعـةـ رسـالـتـهـ الشـعـرـيـةـ فـىـ أـنـهـ لـمـ يـعـدـ يـتـحدـثـ عنـ الـمـأـسـاةـ فـىـ شـكـلـ الـحـكـىـ أوـ الـقصـصـ يـضـمـيـرـ الـغـائـبـ ،ـ بـلـ إـنـهـ يـوـاجـهـ هـذـاـ الـأـبـيـضـ الـمـسـتـبـدـ صـارـخـاـ فـيـهـ :

أـلـئـنـ وـجـهـيـ أـسـوـدـ ،ـ وـلـأـنـ وـجـهـكـ أـبـيـضـ ،ـ سـمـيـتـنـيـ عـبـداـ

وـوـطـئـتـ إـنـسـانـيـتـيـ ،ـ وـحـقـرـتـ رـوـحـانـيـتـيـ ،ـ وـصـنـعـتـ لـىـ الـقـيـداـ

**

لـاـ يـاـ أـخـيـ ..ـ إـنـ الـمـتـهـابـ مـشـاهـدـيـ

هـيـهـاتـ بـعـدـ الـمـيـوـمـ أـنـ يـهـدـاـ

إـنـ صـحـوتـ ،ـ صـحـوتـ مـنـ أـمـسـىـ

وـذـىـ فـأـسـىـ تـهـدـ قـبـورـهـ هـدـاـ

أما الدائرة العربية ، فهى التى سوف يحيط إطارها بعالم المفيتوري ، وفيما سوف نجده ثائرا على روح التقليد الغوى ، والأنماط القديمة البالية ، راقصا كالرعد مع كل ثورة تزيح عن شعب عربى ما كان يثقله من عسف واضطهاد ..

فى قصيدته "المهياك ل" يقول:

.. وكانت المهياكل المعتيقة المقوسة ..

ذات العيون المغائرات المشرسة

والضحكات التعسية

واقفة فى الريح

تلقى على التاریخ ظلها القبیح ..

أخرى بن المعول والمحفار والمضریح

موتي .. اخجلى

تساقطى .. تحللى

إنت عارى ،

عار أرضى ،

أمتى ، مستقبلى

عار على من بحرث المقل ، ومن يحصده

أن يضفر السوط لمن يجلده

عار على من يحضر الملحد ، ومن يلحده

أن يقتنن طاغية يعبده

ويقول في قصيده "إلى بول روبسون":

كانوا يخفون خناجرهم في أوجهم حين تغنى

وتشيب سوالفهم حقدا

وتشيح نيورك مهينه

فخنائق يجلدها

يسعدها

ويجردها

من زينتها، فتلاوح بلا زينه

لكن رسالة الفيتوري الشعرية تتضمن - إلى جانب إدانة الاستعباد البشري - محاور أخرى ، يأتي في مقدمتها استنهاض الأمة العربية لكي تخرج من حالة الخمول والجمود والتخلف إلى مرحلة الانطلاق الحضاري ، الذي تستحقه بالفعل . ومن المؤكد أن المشاعر لا يصدر هنا إلا عن إيمان قوى بقدرات هذه الأمة وإمكانياتها الكامنة في روح شعوبها ..

ـ مـةـ يـشـقـبـ مـنـ رـايـتـهـ

ـ كـلـمـاـ اـمـتـدـتـ عـلـىـ الـأـفـقـ انـقـسـامـ

ـ عـثـرـوـهـاـ ،ـ مـزـقـواـ وـحدـتـهـاـ

ـ فـهـىـ سـوـدـانـ وـمـصـرـ وـشـآـمـ

ـ وـنـسـوـاـ أـنـ الـنـوـاقـيـسـ غـدـاـ تـنـتـادـىـ ،ـ وـالـمـواـزـيـنـ تـقـامـ

ـ وـالـمـفـيـتـورـىـ رـغـمـ مـرـارـةـ تـشـاؤـمـهـ وـرـغـمـ الـكـآـبـةـ الـمـسـوـدـاءـ الـمـتـىـ تـغـلـفـ -ـ فـىـ كـثـيرـ مـنـ الـأـحـيـانـ -ـ رـؤـيـتـهـ لـلـوـاقـعـ ،ـ مـؤـمـنـ مـتـفـاـئـلـ بـمـسـتـقـبـلـ الـأـمـةـ :

ـ أـعـرـفـ أـنـ الـمـغـدـ لـيـسـ خـدـهـمـ ،ـ

وأنهم سيفوزون

فَإِنْ مَنْ لَمْ يَكْبُرُوا .. سِيَكْبُرُونَ

وَإِنْ مَنْ لَمْ يَعْرِفُوا .. سَيَعْرِفُونَ

أما ما يعبر عن تشاوئمه، فيمكن الموقوف عليه من تلك المأبيات التي اختار بعضها كإهداء لديوانه "أغسان الليل عليك" وهي من قصيدة في نفس الديوان بعنوان "في شتاء قارس":

یا عاصفاً حيث تخطوا

لشد ما أنت غاضب

تکاد تشقق رعیا

وأنت آت وذاهـب

فـىـ مـدـنـ مـنـ نـحـاسـ

وـأـمـةـ مـنـ عـجـ—أـثـبـ

تـأـنـقـتـ فـىـ الـخـطـايـاـ

وازـينـتـ فـىـ الـخـرـائـبـ

مـوجـوـعـةـ ،ـلـيـسـ تـدـرـىـ الـسـيـاطـ منـ أـىـ جـانـبـ

تنـامـ فـوـقـ سـرـيرـ الـذـهـولـ ،ـوـالـحـلـمـ غـائـبـ

وـمـنـ الـمـؤـكـدـ أـنـ شـدـةـ الـإـيمـانـ بـقـضـيـةـ مـاـ يـدـفعـ صـاحـبـهـ إـلـىـ شـدـةـ الـغـضـبـ نـتـيـجـةـ عـدـمـ حلـهـاـ ،ـأـوـ الـمـتـهـاـونـ فـىـ هـذـاـ الـحـلـ ،ـوـهـذـاـ مـاـ يـفـسـرـ الـحـدـةـ
الـمـوـاضـحةـ فـىـ تـعـنـيـفـهـ الـبـالـغـ لـلـأـمـةـ الـعـرـبـيـةـ .ـ

لـكـنـنـاـ إـذـاـ اـنـتـقـلـنـاـ مـنـ الـقـضـاـيـاـ الـقـومـيـةـ لـدـىـ الـفـيـتـورـىـ ،ـ وـجـدـنـاـ هـنـاكـ مـحـورـيـنـ آـخـرـيـنـ ،ـ هـمـاـ الـحـبـ وـالـمـتصـوفـ ..ـ أـمـاـ الـحـبـ فـقـدـ بـدـأـ فـيـ ذـهـنـهـ مـرـتـبـطـاـ بـمـعـانـىـ الـطـهـرـ وـالـعـفـافـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ فـيـنـ المـرـأـةـ تـمـثـلـ هـنـاـ تـارـيـخـ كـأـفـعـىـ ،ـ وـتـارـيـخـ غـارـقـةـ فـيـ الـمـوـحـلـ ..ـ وـيـبـدـوـ لـىـ أـنـ هـذـهـ الـمـرـحـلـةـ هـىـ الـتـىـ أـحـبـ الشـاعـرـ فـيـهـاـ الـمـرـأـةـ مـنـ بـعـيدـ ..ـ لـكـنـهـ عـنـدـمـاـ اـقـتـرـبـ مـنـهـاـ ،ـ وـتـعـالـمـ بـعـدـهـاـ ،ـ أـدـرـكـ أـنـهـاـ مـخـلـوقـ حـسـاسـ

للـغـاـيـةـ تـتـطـلـبـ مـنـ الـرـجـلـ رـعـاـيـةـ خـاصـةـ بـلـ إـنـ جـمـالـهـاـ لـاـ يـزـدـهـرـ إـلـاـ إـذـاـ أـحـيـطـ بـحـبـ الـرـجـلـ

..

وـأـمـاـ الـمـتصـوفـ ،ـ فـلـهـ مـعـ الـفـيـتـورـىـ تـارـيـخـ طـوـيـلـ ،ـ يـبـدـأـ مـنـ بـيـتـهـ الـذـىـ نـشـأـ فـيـهـ ،ـ وـمـنـ وـالـدـهـ شـيـخـ إـحـدىـ الـمـطـرـقـ الـصـوـفـيـةـ ،ـ ثـمـ مـنـ قـرـاءـاتـ وـمـشـاهـدـاتـ وـتـقـلـيـدـاتـ مـزـاجـيـةـ مـرـبـاـنـهـاـ الـفـيـتـورـىـ طـوـالـ عـمـرـهـ ،ـ سـاعـدـتـ عـلـيـهـاـ كـثـرـةـ تـقـلـبـهـ فـيـ الـبـلـادـ ..ـ فـقـدـ عـاـشـ الـفـيـتـورـىـ فـيـ مـعـظـمـ الـمـعـاـصـمـ الـعـرـبـيـةـ وـكـذـلـكـ الـأـوـرـبـيـةـ ،ـ الـأـمـرـ الـذـىـ جـعـلـهـ يـعـرـفـ الـلـمـ الـغـرـبـةـ ..ـ وـدـائـمـاـ مـاـ يـسـأـلـ الـخـرـبـ نـفـسـهـ سـؤـالـيـنـ هـامـيـنـ :

لـمـاـذـاـ أـنـاـ ؟ـ وـمـاـذـاـ بـعـدـ ؟ـ ..ـ وـكـلـ مـنـهـمـ يـؤـدـىـ بـهـ إـلـىـ مـزـيدـ مـنـ الـمـرـجـوعـ لـذـاتـهـ ،ـ وـالـمـغـوـصـ فـيـهـاـ بـحـثـاـ عـنـ وـاحـةـ تـظـلـهـ ،ـ أـوـ نـبـعـ مـاءـ يـطـفـئـ عـطـشـهـ ..

لـكـنـنـاـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـفـهـمـ الـمـتصـوفـ فـيـ شـعـرـ الـفـيـتـورـىـ عـلـىـ أـنـهـ ذـلـكـ الـمـتصـوفـ الـجـاهـلـ الـمـذـهـولـ ،ـ وـإـنـمـاـ هوـ تـصـوـفـ ثـورـىـ وـمـثـقـفـ ..ـ وـعـلـاقـةـ جـدـلـيـةـ بـيـنـ مـرـيـدـ جـرـيـدـ جـرـيـدـةـ ،ـ وـشـيـخـ حـاضـرـ الـإـجـابـةـ ..ـ كـلـاـهـمـاـ يـحـتـرـمـ مـاـ فـيـ الـدـنـيـاـ مـنـ مـظـاهـرـ خـادـعـةـ وـفـاسـدـةـ ،ـ وـلـكـنـهـ مـؤـمـنـ دـائـمـاـ بـإـمـكـانـيـةـ بـلـوـغـ الـأـمـضـلـ ..

كـذـلـكـ فـيـنـ النـزـعـةـ الـمـصـوـفـيـةـ لـدـىـ الـفـيـتـورـىـ لـيـسـتـ نـزـعـةـ فـرـديـةـ ،ـ هـدـفـهـاـ خـلاـصـ روـحـ الـأـمـةـ كـلـهاـ .ـ وـمـنـ الـمـؤـكـدـ أـنـهـ -ـ بـعـدـ طـوـلـ الـطـوـافـ وـرـؤـيـةـ الـعـدـيـدـ مـنـ الـمـناـضـلـيـنـ الـمـزـيـفـيـنـ -ـ أـدـرـكـ ضـرـورةـ الـنـقـاءـ الـمـروـحـىـ ،ـ وـالـأـخـلـاقـيـ الـذـىـ لـابـدـ مـنـهـ لـتـطـهـيرـ الـأـرـضـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ وـتـنـقـيـةـ الـهـوـاءـ الـذـىـ يـمـرـ عـلـيـهـ .